

يتجنيان لك كأنهما الرحالتان المتأخران نوردًا لسكيولد ونانسن فقد أعربا فيها آمال
كآمال هذين الرحالتين وقاسيا مثل ما قاسيا من قلة الجوع وبرد ونصب.
كل هذا والمركبات قليلة فلم يكن في أوائل سنة 1600 في باريز سوى أربع مركبات
منها واحدة للبنك والفنادق فيها مما يصحك ومضى قرنان بعدها والقوم في أوروبا
عدهم البغال والخيول والمركبات وسياحتهم تختلف باختلاف أغراض السائحين
ومبلغهم من الشجاعة حتى جاء البخار والكهرباء فقصروا المسافر وسهلا السفر بعد
أن كان قطعة من العذاب وبعد أن كانت تصرف الأيام الطويلة في الرحلات ويتعارف
الناس إلى بعضهم ويقضون الأيام والليالي في الأحداث أصبحوا الآن يصلون أسرع من
البرق الخاطف ولعل الأتوموبيل الذي رغبت النفوس في السفر فيه اليوم بدل السكن
الحديدية سيظل بعد حين كما بطلت العربات والحوادج واخفات ويرى أبناء أبنائنا ما
لا يخطر لنا ببال فقد أصبحت الخانات قصوراً فيها كل ما لذ وطاب والحوافل بعد أن
كانت يجرها البقر والخيول أصبحت تجر بقاطرة بخارية.

القضاء على الشقاء

كتب فريديك بياسي أحد أعضاء مجمع العلوم الأدبية والسياسية في باريز مقالة في
الشقاء الإنساني وتخفيف ويلاته أو نزع شأفته فقال أنه عني كثرة الباحثين في تخفيف
ويلات الإنسان والكاتبين فيه ما زال الناس يقولون بأن الشقاء إن لم يزد عنا كان
فهو لم ينقص ولم يوفق أحد من أولئك العالمين إلى فتح دور النعم والرضى العام. ومهنا

كان من حسن نية واضعي القوانين وواضعي الأدوية فليس من السهل الاهتداء إلى طريقة تنهض الإنسانية من كبوتها المزمنة في يوم وليلة ولا من الهين الذين القضاء على ما يحف بالبشر من الآلام والأوصاب.

ومع هذا فلا أزال أقول أن هذه المعضلة ليست مما يتعذر حلّه وهذا الداء لا بد من شفاؤه وهو مما يجب على كل ذي ذمة يحترم طبيعته ويهتم لما ينلقى عليه من أعباء المسؤولية أن يسعى إلى بلوغ تلك الضالة المنشودة سعيها ويعقد ناصية الأمل بشفاء الداء. ولا يتم ذلك بسن القوانين واتخاذ الذرائع الخارجية لتحينولة دون هذه الويلات لتقف عند حد القشور دون النفوذ إلى الباب بل لا يرجى الفوز بهذه الأمانة إلا إذا غيرت الأفكار والأخلاق ولا يدخل التغيير والإصلاح النذان يقذلان من الشر ويدفعانه إلا إذا أدخل الإصلاح من الداخل لا من الخارج على من يتألف منهم المجتمع. وما على من يود الوقوف على أسباب هذا الشر والشقاء إلا أن يبحث ويستقصي وعندها يتجنى له فيما إذا لم تكن الأسباب كلها اختيارية ومعظمها مما يدخل في طوقنا ويصدر عن إرادتنا. فإذا صحت إرادتنا وطردها شيطان الجهل الذي يضل عقولنا وابتعدنا عن الشهوات المفسدة والسيئات والخطيئات المهلكة وكلها مولدة للشقاء فنكون قد قضينا على الداء في موطنه واجتئنا عرق الفساد من أصله.

لا ينبغي الخلط بين لفظي الشقاء والفقر واختلاف طبقات الناس فالفقر نسبي وليس من لوازمه أن يكون مضمياً. قد قال البارون روتشند الغني المشهور في نحو النصف من القرن الماضي عندما بلغه موت أغادو من أغنياء الإسيان: يا حسرتاً على أغادو فقد كنت أظنه في سعة من العيش أكثر من ذلك. وذلك لأنه بلغه أنه لم يترك سوى ستين

مليوناً من الفرنكات. وقالت عجوز للفيلسوف جول سيمون عندما زار منازل مدينة ليل للبحث في حالة ساكنيها: الحمد لله على أن لنا أحذية من قش. تريد ذلك تشبيه نفسها بحيراتها الذين قضى عليهم أن يضطجعوا على الأرض بلا غطاء ولا وطاء. ومن احقق أن الفقر يحالفنا من بعض الوجوه إذ ليس من الناس إنسان إلا ويحرم من الاستمتاع بلذة شريفة ولا يصد عن أمنية مطلوبة. ولكن هذا الحرمان إذا لم يبلغ حده فينا وفي الموجودات التي نعزها لا يمس جوهر الحياة ومتى حصلنا بفضل العنل والعناية الكثيرة اليومية على ما يينغنا الضروريات إلى حد محدود وأخذنا بحظ من الطعام واللباس والمسكن والنام لنا ولذوينا. متى حصلنا بفضل الكد على ما نقدر به قدر كفاية أنفسنا بأنفسنا ونستحق به أن نحيا فلا يحق لنا أن نتكلم في الشقاء وإذا فعلنا فنكون قد جلبنا على أنفسنا الإهانة. وما على المرء إلا أن يغتبط وهو في ثيابه القليلة بل وعنده أن يفاخر بها ويباهي بسعادتها إذا كان غنياً عن مسألة أحد على حين لا يظفر بزخارف الحياة الدنيوية والبدخ العالمي إلا بإراقة ماء الوجه ومقاساة الهنوم والغبوم.

الشقاء حالة تصيب المرء بغنطات ارتكبتها هو مباشرة أو هو نتيجة سيئة لأغلاط ارتكبتها من ينوذ به أو هو عقبي سوء سنوك سبيه الجهل والفساد والشهوة والمطامح السيئة والفحلال عرى التضامن فيصير به الإنسان كلاً على غيره عاجزاً مادياً أو أدبياً عن كفاية نفسه وآله تنقطع حيله عن المقاومة وتحرير النفس من ربطة العبودية والانحطاط الذي أصابه أو قبل به فأمسى غريقاً في لجة مزبدة بالنقص الإنساني وما هو إلا الفضيحة والألم والخطر على مجتمعاتنا. بيد أني أكرر ما قلت بأن هذا الانحطاط

وذاك التسفل الذي يصيب كثيرين من البشر يسهل تعيين تأثيراته المضنية التي كانت سبباً فيه وإن من السهل وضع الدواء لهذه العوارض ما خلا الحوادث والنكبات التي قد يتأتى تخفيف وبلاتها أيضاً.

قال الكاتب لابولاي إذا أردت أن تترجح بحر الآلام البشرية فلا تحاول أن تأتي ذلك باتخاذ بعض الكفوس الكبيرة تجعلها سلاحاً في يد المشرع فإن البحر تجري إليه المادة على الدوام وخير ما تأتيه أن تحول دون تلك المصادر التي تأتي إليه بالمياه. أصح الغلط وافئدة سورة الغضب وسدد الأميال الفاسدة واجعل الحكمة عوضاً عن الجنون وحسن الألفة بدل الشقاق وعندها يتزل ذاك البحر النجس عن معدله بالطبع وتحسن الحالة العامة. ولنفهم هذه النصيحة ولننظر ما هي تلك الجاري والأهوار التي تجري إلى ذاك البحر الذي لا يغاث الناس فيه ويهلك من يهلك.

فالحرب هي أول المدمرات والمهلكات. أما الحرب فلا أحاول أن أقضي عليها بعد الذي علم من تنافس الأمم فيما تتخذه من أسباب الخدر والحيلة. وما دام يخشى شر الحريق فلا أحسن من الاستسلام الآن على أصحاب المضخات ودفع مبالغ لضمانة البيوت وإخال وإذا لم تؤد إليهم ما يلزم لإعالتهم فلا نلوم إلا أنفسنا ولعنه يقال بأن المال الذي يصرف في هذا السبيل فاحش ولكن إذا توصلنا إلى إلغاء الخطر فلا معنى إذ ذاك للإنفاق على الضامين وأرباب المضخات وإذا أن خطر الحرب صعب تقنيته وهي مخاطرة يمكن توقي الوقوع فيها أكثر من خطر الحريق لأن الحرب توقد نارها الحكومات والأمم فهي ذا شر لا يجري دائماً بالرضى لأن كثيراً ما يتحمل الناس مصائبها مكرهين وما الحرب إلا صناعية تضحل ذات يوم فتصل الأمم بكثرة ما

تعلمها التجارب إلى درجة تعلم معها أنها لا تريح شيئاً من تحاسدها وإلحاق الأضرار وأن الأريح لها أن تحترم أنفسها وتتعاون وما يقال في تحاسد الأمم ومنافستها وتباغضها يقال أيضاً في الأحقاد الاجتماعية وشدتها وما سبب ما نرى من بوادي الحرب وبواردها مهنا كان من تجليها أو خفاتها بين الأمم والجناعات إلا أننا نعتقد في الغالب بأن الأغراض والحقوق متغيرة ويصعب بث روح السلام فيها لأن عظمة الأمة وقدرتها وثروتها تتجنى لنا كأنها غنائم قضى علينا أن نتضارب من أجلها وليست إرثاً عاماً عهد إلينا تنسبته بحسن العشرة والمعونة المتبادلة فبدلاً من أن نفتح تخومنا للتجارة لتأتيها بما ينقصنا من الغلات ونفتح لنا مصارف نصرف فيها ما يزيد عندنا منها لا نفكر إلا في وضع العقوبات في تلك التخوم لأننا موقنون بأن الواحد إذا كسب ينزم عليه أن يخسر الثاني وهذا لأننا لا تعلم أن رأس المال هو ثمرة العمل وبذر لا يحفظ وينسو إلا إذا استجبال إلى أجور وبذلك يضم إلى العمل المنتج قوة أخرى تقضي قضاءها على المهنوم والأحقاد. ألا فنصلح الأفكار والعدل والإحساس لنحكم الرضا والمعونة المتبادلة بدلاً من التخوف والحسد.

ليس ثمة غير الخطيئات العامة كعداوة الأجناس بعضها لبعض وعداوة أهل اللغات المتباينة وعداوة الدين وعداوة الطبقات وهناك خطيئات شخصية كلما زادت تصبح خطيئات عامة ولا تبقى قاصرة على فاعليها. كان علينا الأخلاق هم المتشددين سابقاً في النعمة على انتشار المسكرات والموبقات ولكن من منا اليوم لا يشعر بما شعروا هم به من قبل ونددوا بسيئاته.

ليست الحكومات وحدها هي التي تبوء بتبعة إكثار الضرائب على الناس كما قال
فرنكنين بل هناك ضرائب كثيرة وضعناها بأنفسنا على عواتقنا وذلك إن كسبنا
يتقاضانا مما يعادل تلك الضرائب وشراعتنا تسلبنا ضعفي ذلك وعُجبتا ثلاثة أضعافه.
وهناك سلسلة من سلاسل المصائب الإنسانية هي سبب البلاء والألواء وأعني بها
الخصومات وضروب القسوة وسوء معاملة النساء والأولاد والأمراض التي تنجم عن
الخصومات وقلة العفة وضعف البصر ورجفان اليد وأعمال تؤدي بفاعلها إلى الجنون
وتضعف الجنس وتورث الأبناء بجهل الآباء أمراضاً يجنيها عليها آباؤهم. ولا تنس أن
تذكر في تلك السلسلة لعب الوقت والمال وصرفهما في الملاذ والبذخ والإسراف وما
يصرف في الحفلات والأعياد مما جمع بعرق القربة وإهلاك القوى وكذلك ما يجري في
سياق الخيل فإن أدعى قوم بأن السباق نافع للجياذ فهو ولا جرم غير نافع للناس.
وسواء كان المرء بيده شقاؤه أم لم يكن وهو به جدير أم لم يكن فينبغي النظر إلى
الأصل فيه فإن من الناس من يقولون بأن للأقدار أيضاً يداً في الشقاء وإسعاد السعيد
وذلك لأن العوارض والأمراض والمصائب هي التي تحمل على البيوت فتخربها وتعبث
بالنفوس فتشقيها. أما أنا فأقول أن معظمها صادر عنا ونتيجة لازمة لسيئاتنا نحن لا
نحسن تناول الغذاء وجعل نسبة بين طبيعة الأغذية اللازمة للقوة العضلية والعصبية
والدماغية وبين كسبها. نحن لا نحسن لبس الثياب ولا نجيد التصرف ولا نعتنى بأمور
الصحة والنظافة المطلوبة واستجادة الهواء والمسكن الذي يقينا التعرض لضروب
الأدواء نحن وعيالنا. لا نحسن انتخاب دور نسكنها وأهلنا بحيث تضمن لنا الهواء
النقي والتعرض المطوب للنور الذي يلقي الحياة. ولا تحفل بالأسباب المختلفة اللازمة

للفهمية كل حين وبدونها قنزل الحياة ولا تنمو ويصبح المرء عرضة للأمراض على اختلاف أنواعها كالحصيات الطفحية والرمد والحناق والسل. ومتى دققنا النظر في الشؤون وأعزلنا العناية معنيتها نجد أننا لو أحسننا العناية والحذر والعلم لكنا نجونا من تلك السيئات والثرلات.

بقي هناك شيء لا ينبغي لنا أن نغفل فيه لأنه قليل وأعني به المصائب التي لا ضامن من الوقوع فيها كالأمراض التي تصيب عقل العقلاء وأكبر أرباب الانتباه. هناك الموت الذي لا ينجو منه إنسان والحريق الذي لا يكون أبداً نتيجة سوء التدبير. والغرق والفيضانات والمقذوفات وسقوط السكن الحديدية. فهذه المصائب لا ينفع فيها إلا التسليم وهذا ما أعنيه بتولي القضاء على الشقاء لا تلك الضروب من الحوادث التي ليست في الحقيقة مادة الشقاء وأس أساس كل بلاء. على أنها ليست كلها مما يتعذر شفاؤه بل أن العلم بما بلغه من الارتقاء قد أحدث أساليب كثيرة لاستئصال شأفة تلك المواد فإذا لم تستطع أن تمنعها كلها ففي وسعك على الأقل أن تقلل صدماتها وتعديل من نتائجها. نعم إن الحذر قد لا يمنع من قدر. ولكن ليس هناك ما يمنع من التوقي منه بأن يبذل في سبيله ما لا بد منه من العناية ما أمكن. والضمان إذا لم يحل دون حرق العقار وضياع السفينة والموت بأخذ المرء من وسط أشغاله وعياله فهو على الأقل يهيئ السبل لإعادة بناء البيت وفتح المعمل والاستعاضة عن تلك السفينة فلا يدخل المرء إلى داره مع الحزن والخراب والفضيحة فيكون قد أتى بحشف وسوء كينة.

وما أسباب الشقاس في الحقيقة إلا نتيجة أغلاط ناشئة من الجهل وأغلاط ناشئة من سلوك إذا تدبرنا مصيرها وتعلمناه وكانت لنا إرادة في إصلاح النفس كان في الإمكان

الخلاص من الشقاء. فالمسألة متوقفة على قليل من المعرفة وقليل من الإرادة فعيننا أن نثير بصائرنا وبصائر غيرنا. والإرادة الثابتة تحول دون الشقاء. وجماع النجاح في ثلاث كنهات: المعرفة والإرادة والقدرة. والعلم والإرادة تولدان القدرة. ويقول تولستوي: إن داء الدواء لا يخرج عنا وليس هو محصوراً في تدابير الإدارة التي تتخذها الحكومات ولا في إدخال الإصلاح على المجتمع بطريقة عرفية قاسية وما الدواء إلا بيدنا بل القسم الأعظم منه فينا

فإذا أريد تحسين حالة الإنسانية فالواجب أولاً تحسين حالة الإنسان. وربما قام المشككون وقالوا وهل في الاستطاعة تغيير الناس فنقول لهم نعم نحن نستطيع تغييرهم بتأن ويجب علينا أن نسعى إلى تغييرهم وهذا في الإمكان.

الرومان

وصف إيطاليا

شعوبها القديمة: سكنت إيطالي عدة أجناس من الأمم لم يتحدوا في عاداتهم ولغاتهم فكان يعتبر السد للعظيم الشنالي بين جبال الألب والأبين جزءاً من إيطاليا وهناك نزل شعوب من الغاليين أتوها من الشمال. فكان الأتروسكيون يتولون في البلاد الواقعة بين جبال الأبين والبحر (هو إقليم توسكانيا) إلى نهر التيبر وفي جنوبه يتول اللاتين. ولقد سكنت قبائل كثيرة في جبال الأبين الوعرة وراء السهول الرومانية في الشرق والجنوب ولم تدع كل هذه الشعوب باسم واحد ولم تؤلف أمة واحدة بل كانت تنقسم إلى أومبريين وصابينيين وفولسكيين وإيكين وهرنكيين ومارسيين وسامنتيين ولكنهم يكادون كلهم يتكلمون بلغة واحدة ويعبدون آرباباً واحدة ولهم